أثر السياق الثقافي والاجتماعي في إنتاج النصوص وتلقّيها وتوجيه الدلالة.

The cultural and social context influences the production, reception, and interpretation of texts.

عبد القادر خروبي

المدرسة العليا للأساتذة بشار الجزائر، kharoubi1989@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2026/03/04 تاريخ القبول: 2026/05/04 تاريخ النشر: 2026/06/06

ملخص:

إنّ اعتبار النّص كوحدة لغوية قائمة بذاتها تنطلق منها جميع الأنشطة اللغوية من إفرازات اللسانيات الحديثة أو ما يعرف بلسانيات النص، وعليه فتشترك فيه عدة ميادين علميّة، ذلك أنّها تمتلك بنيات سطحية تتمثّل في المستويات اللغوية (الأصوات، المعجم، التركيب، الدلالة...) وبنيات فوقية (المستوى الثقافي والاجتماعي والظروف والمقامات...) التي أفرزت لنا هذا النص، وفي هذا الإطار تتظافر هذه العوامل كلّها بعضها ببعض في التحليل النصي.

سنتناول في هذه الورقة البحثية نظرة النقاد إلى النص، وبنيته المنفتحة أو القابلة للانفتاح والتي يستحيل عزلها عن السياقات (الثقافية والاجتماعية) التي أفرزتها، وكذا فاعلية هذه السياقات في إنتاج الدلالة وتوجيهها، ليأتي الدور على ما يسمّى بالنقد الثقافي لقراءة هذه النصوص وتوجيهها توجيها سليماً.

كلمات مفتاحية: النّص، السياق، ثقافي، اجتماعي، انفتاح، الدلالة.

Abstract:

Considering the text as a self-contained linguistic unit from which all linguistic activities originate is a product of modern linguistics, or what is known as text linguistics. Consequently, several scientific fields share this view, as it possesses surface structures represented by linguistic levels (phonetics, lexicon, syntax, semantics, etc.) and superstructures (cultural and social levels, circumstances, and contexts, etc.) that produced this text. Within this framework, all these factors work together in textual analysis.

This research paper will examine the critics' perspective on the text and its open, or rather, open structure, which cannot be isolated from the (cultural and social) contexts that produced it. It will also explore the effectiveness of these contexts in producing and directing meaning. This leads to the role of what is called cultural criticism in reading and correctly interpreting these texts.

Keywords: Text, context, cultural, social, openness, meaning...

1. مقدمة:

لقد بسَط المؤلّف سلطته على النّص لعقود طويلة في نظر النقّاد واعتُبر المبدع الأول للنّص، لكنّ سرعان ما تبددت هذه النظرة، ودخلت عوالم أخرى هي أيضاً بإمكانها المشاركة في خلق هذا النص، وإنتاج دلالته منها السيّاقات الثقافية والاجتماعية، ولاسيّما القارئ الذي عُدّ المصدر النهائي للمعنى، والنقطة التي ينكشف عندها المعنى ويتّضح، ولكن قبل هذا الأخير كان النّص قد مرّ على مرحلة المخاض قبل الولادة والتي يمكن أنّ نمثّل لها هنا بتأثير السياقات الثقافية والاجتماعية على وجوده.

وعليه يمكن عد السياق الثقافي كواحدٍ من أهم القرائن والأنساق المهمّة التي تُعين على تحديد معنى النص، وتوجيه دلالته، حين يسعى إلى ربط النتاج الأدبي بمبدعه ومتلقّيه والظروف الاجتماعية التي انغمس فيها النص، لأنّ اللغة نشاط اجتماعي يتوقّف فهمها على الإحاطة بمكوّنات المجتمع من عادات وتقاليد وأعراف وثقافات، وكذلك المجتمع يُشكّل إطار هذه اللغة، ففي أحضانه تنمو وتترعرع، وهو من يصنع هذه الوحدات التي يتواصل بها أفراده، إذن فالثقافة الاجتماعية لكل أمّة ولسان حالها اللغة تفرض نوعا من العلاقات لا يفهما إلّا أبناء ذلك المجتمع، بناءً عليه حريّ بالقارئ الناقد المقبل على تفسير النص أن يلمّ بالسيّاق الثقافي لهذا النص، وعلى إثره ظهر ما يُعرف بالنقد الثقافي كمنهج تحليل خاص بالنصوص الأدبية له رواده وعلماؤه، وحددّت معالمه الدراسات النقدية ما بعد البنيوية.

2. النص في نظر النقاد:

عرفت النظريات القديمة تبايناً في الآراء وتضارباً في الأفكار، وتراكماً في المناهج والمفاهيم حول النص من حيث إنتاجه وتلقّيه باعتباره كيان منغلق على نفسه، في النظرية التقليدية كان المؤلّف المُنطلق لعملية فهم النص وسبر أغواره وتحليل دلالاته لفترة غير وجيزة، وكان ينظر فيها إلى النص على أنّه مجرّد صورةٍ مطابقةٍ لمؤلّفه، وهذا ما اعتبر فيما

بعد نظرةً أحادية للنص في العملية الإبداعية، تقصي أطرافاً أخرى لا تقل أهمية، ولها تأثيرٌ في هذه العملية كالقارئ أو المتلقي.

هذا الوضع السائد قديماً، إلى أن جاء الناقد رولان بارت وخلخل هذه النظرية من أساسها، ونادى بفكرة موت المؤلّف. ولكن قبل أن نعرج على مفهوم النص عند النقاد لابدّ أن نوضح مدلوله اللغوي، والمتتبع لكلمة نص في المعاجم العربية تجمع على معنى الظهور والوضوح والارتقاء، وغاية الشيء ومنتهاه، فقد ذكر ابن منظور في معجم لسان العرب: "أنّ النص رفعك الشيء، نصّ الحديث ينصّه نصّاً رفعه، وكلّ ما أُظهر فقد نُصّ، وأصل النص أقصى الشيء وغايته" [1] وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط:" نصّ إليه الحديث ... ومنه فلان ينصّ أنفه غضباً وهو نصاص الأنف والمتاع جعل بعضه فوق بعض، والعروس أقعدها على المنصّة بالكسر وهي ما ترفع عليه فانتصّت...،والنّص الإسناد إلى الرّئيس الأكبر، انتصّ: انقبض..." [2].

أمّا المدلول الاصطلاحي لكلمة نص كما ذهب إلى ذلك الفقهاء والأصوليون أمثال الشافعي وأبو حامد الغزالي وابن حزم وغيرهم هو(ما لا يحتمل إلّا معنىً واحداً وقيل ما لا يحتمل التأويل)[3] ، كما ورد في معجم التعريفات للشريف الجرجاني والمعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة أيضاً، وقد خالفهم في هذا المذهب السيوطي حين أقرّ بالتأويل معتلاً بالقرائن الحالية والمقالية، وكلّ هذه الآراء تُعنى بمفهوم النصوص الدينية المقدّسة التي لا تقبل الاجتهاد، ولكن سرعان ما انتقل مدلول هذه الكلمة إلى العكس تماماً، عندما انتقل إلى حقل الأدب والنقد والبلاغة، فأصبح المفهوم أكثر توسّعاً وأعمق ثراءً، وخاصّة النقّاد الذين اعتنوا كثيرا بمفهوم النص ودرسوه من جوانب عدّة، وأخصُّ الغربيين منهم.

فالنص في نظرهم" ليس متتالية لغوية اعتباطية مفرغة من مقصديّة موجّهة، إنّما هو سلسلة من الجمل المتتابعة تربط بينها قواعد الانسجام والاتّساق والترابط يُراعى فيه مقتضى حال المخاطبين في أوسع دائرة ممكنة ليحدث من خلاله تفاعلاً خطابياً ناجعاً قائماً على تأويلات صائبة وفق السياقات المقامية المختلفة"[4] .

وفي ما جاء في تحديد مفهوم النص ما أدلت به جوليا كريستيفا التي ترى أنّ النص يتجاوز حدود الخطاب أو القول فهو مجال للممارسات السيميولوجية، فهو مكوّن لغوي لكنّه لا ينحصر في حدود اللغة فهو عملية إنتاج تعمل على إعادة توزيع مكوّناته اللغوية من خلال عمليتي التفكيك والبناء، كما أنّه عملية استبدال من نصوص أخرى من خلال التناص حيث تتقاطع فيه أقوال عديدة مأخوذة من غيره [5].

ولعلّ أبرز الأسباب التي أدت بالنقاد إلى أن يهتموا بالنص كل هذا الاهتمام هو عجزُ ما يُسمّى بلسانيات الجملة عن الإحاطة بكل المدلولات التي تحتملها متتاليات الجمل وخاصة البُنى التحتية والسياقات الاجتماعية والثقافية التي يبدو أن الجملة تبقى عاجزة عن احتوائها.

أمّا دريدا فيرى أن النص نسيجٌ لِقِيمات أي مجموع تداخلات، وهو لعبة منفتحة منغلقة في آن معاً فهو لا ينحدر من جذر واحدٍ، بل هو نسق من الجذور...[6]وهكذا فالنص ذو مفهوم ديناميكي زئبقي قد يتّسع ليشمل عوالم لا حصر لها من الدلالات، لا يمكن أن تطفو على الملفوظات اللغوية التي تعبّر عن محتواه، ويمكن أن يضيق المجال به فلا يعني إلاّ الدلالات السطحية للألفاظ المباشرة، والتي وُضعت في الأساس لتُعبّر عن هذه المقاصد.

3. النص بنية منفتحة لا مغلقة:

لعلّ من أبرز خواص النص الأدبي في نظر النقاد هو خاصيّته الإنفتاحية على التأويلات اللّانهائية وقد أكّد جاك دريدا هذا في قول له ذكرناه سابقاً، فقد تطرح في هذا الشأن العديد من التساؤلات من أبرزها؛ "إذا كانت النصوص الأدبية في جوهرها منفتحة،

فكيف تُقرأ؟ أبِصرامة الأدوات اللسانية العلميّة التي حقّقت انتصارات باهرة في الدرس اللساني، والتي لم تدرك من النص إلّا كونه بنية منسجمة ومتماسكة، تشكّل نسقها، وتنتج معناها منها وإليها، أم بالرجوع إلى حقيقة النصوص؟"[7].

يبدو من الثابت استحالة عزل النص عن السياقات الخارجية التي أنتجته، فكما أن العمل الأدبي عموماً له علاقة قوية بالبناء اللغوي الذي يتركب منه، فكذلك علاقته بالقرائن الخارجية تبدو أقوى، فهي بمثابة التربة التي نبت فيها وترعرع، ونما حتى يكبرَ ويشيخَ، فتلك القرائن لها دورها في تحديد المعاني وتوجيهها، ونجاح عملية التواصل.

ولعلّ جدلية انفتاح النص وانغلاقه ليست وليدة عصور متأخرة، فقد راح الناقد السعودي الكبير عبد الله الغذامي، ينقّب في تراثنا العربي لعلّه يجد شيئاً ممّا تصوره حول فرضية النص وتخليصه من سلطة الدلالة الأحادية، فإذا به يعثر على نص لعبد القاهر الجرجاني يقول فيه " واعلم أنّه إذا كان بيّناً في الشيء أنّه لا يحتمل إلّا الوجه الذي هو عليه حتّى لا يشكل، وحتّى لا يحتاج في العلم إلى ذلك حقّه وأنّه الصواب إلى فكرٍ ورويّةٍ...فلا مزيّةٍ، وإنّما تكون المزيّة ويجب الفضل إذا احتمل ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً أخر، ثمّ رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت الذي جاء عليه حُسناً وقُبولاً، تعدمهما إذا أنت تركته للثاني " [8] .

فكأنّ أستاذنا عثر على ما يؤيّد تصوره الذي ذهب إليه حول مفهوم المشاكلة والاختلاف إلى حد وسمه (بالنّصوصي) على إثر ذلك، "حين جعل من مناقب اللّفظة أن تتعدّد معانيها، ليصف الغذامي ذلك بأنّه تحرير للدّال من سلطة المدلول القاطع"[9] فمعنى رأي عبد القاهر يروم إلى تحرير اللفظة من سلطة المعنى الأحادي، وترك المجال للسياق والمقام هو الذي يُحدّد هذه الدلالة، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن مقصود عبد القاهر يخص

اللفظة البسيطة، فما بالنا بالجمل والنصوص، فهي من باب أولى أن تقبل تعّدد المعاني، فهي متشابكة في تراكيبها ومستوياتها. ومن جهة أخرى يُحسب لعبد القاهر الأسبقية في كونه أوّل من حاول الخروج على قضية مطابقة اللفظ للمعنى، وفتح المجال لإمكانية تحرك النصوص وتحولاتها من دلالة إلى أخرى وفق طرحٍ عبقري.

يقول عبد الله الغذامي "...و"هذا النص عُدّ من عبد القاهر تأسيساً لمفهوم الاختلاف الذي به تكون البلاغة من حيث تعدّد وجوه الدلالة، ومن حيث اتكّاء الدلالة على علاقات السياق الناتج عن تركيب الكلام" [10]، ونريد أن ننوه أنّ الغذامي نحت مصطلحي المشاكلة والاختلاف في إطار مشروعه النقدي الثقافي، وهما نظيري (المطابقة والتمايز)، الذي يسعى إلى تجاوز مركزية وأحادية المعنى الواحد إلى فضاء المتعدّد، مشروع نقدي يهدف إلى تجاوز الأنساق المهيمنة والجاهزة إلى مساءلة التراث والقيم الاجتماعية والثقافية، وفتح حوار مع المعارف المعاصرة التي حققت قفزة نوعية.

وقد استنتج الغذامي في معرض حديثه عن مسألة المشاكلة والاختلاف أن البلاغة العربية قد قامت على ثلاثة أسس منها: " الغاية في الوصول إلى معنى واحد، والوضوح، وهذا ينافي مفهوم الاختلاف والتعدّد لأنّ الوضوح يُفضي إلى تعددّ المعاني " [11].

ولكنّ مصطلح(النّصوصية) الذي أطلقه الغذامي علي عبد القاهر ووسمه به، وجعله من سماته ليس دقيقاً في نظر النقاد...الانفتاح مقابل الإغلاق وتعدّد الدلالة مقابل المعنى الواحد، وذلك لأنّ النّص وإن احتمل مفهوم النسيج في الثقافة اللّاتينية[12] فإنّه لا يحتمله في الثقافة العربية بل إنّه يدل ويشير إلى ما يشاكل العمودية، فهو يدل على الظهور والوضوح وتحديد المعنى[13] فقد اعتُبر هذا الخلل ناتج عن سوء فهم من عبد الله الغذامي لعبد القاهر الجرجاني، وتشويش على مصطلح النصوصية بانتقاله بالدلالة من الضدّ إلى الضدّ، فمن أبرز مفاهيم النص عندنا في الموروث العربي فهو ما يقبل التأويل.

وقد برّر ذلك علي سرحان القرشي المسعى الذي أدّى بالغُذامي بأن يفضّل هذا المصطلح (النّصوصية) والذي أخذه أيضاً من تصور رولان بارت" كان يبحث عن المختلف في النقد العربي، الذي وقف إلى جانب إيثار(النص الاختلافي، النص الأبي، النص المعمي...)"[14] وهي كلها تسميّات للغُذامي، وهكذا ما كان اتجاهه إلى مسألة النصوصية، وإعطائها طابع تراثي ليضفي عليها الشرعية، سوى بحثا عن الاختراق ومخالفة المألوف والتخلص من القوالب المستقرّة الجاهزة، ومنحُ النص أفقاً أوسع للتأويل والقراءة، وهذا المسعى ذو منابت غربية، ولكن ليس على حساب التراث، فالنص التراثي لا يقبل التأويل وتعدد المعنى. فكان بإمكان الغذامي أن يلجأ إلى مصطلح أخر ليُعبّر عن تصوره كالإبداعية مثلاً.

ويركّز الغذامي على دور القراءة في هذا النص، يرى أن النص المفتوح:" هو ذلك الذي يحفّز القارئ لكي يُعيد كتابته، إنّه يستفزه، ويقلب عوالمه، مثلما يقوم القارئ باستقراء النص، وتحفيزه نحو التكون والتجدد والإنكتابية من جديد [15].

هذا هو إجمالاً الاختلاف الذي أراد أن يقف عليه الغذامي، وإن لم يُفلح في اختيار المصطلح المناسب له، ولكنه يسعى إلى ذلك الاختلاف الذي من خلاله يفلح المؤلّف أو الشاعر في ابتداع العلاقات بين الأشياء في أسلوبٍ جديدِ ومبدعٍ، وقد كان هذا هدفا منذ القدم فقد كان الشاعر قديماً يُطلب منه أن يحفظ طائفة من الأشعار ثم ينساها، بل ومن شروط تعلّم الشعر، ثم يحفظها مرة وينساها، بهذه الطريقة ينبغ في الشعر بعد أن تصبح تلك المحفوظات من نسيج عطائه، وترسخ في لا وعيه، ويصبح لديه سليقة تحاكي ما علق في محفوظه، وهذا نوع من النصوصية بمفهومها المعاصر.

ولعلّ الغذامي كان بحاجة إلى استنباط جهاز مفاهيمي لتصوره الجديد حول النص"ينفتح ويكون من أمام القارئ في مكان معمي ليس بالمستبان، وينشأ حوله الاختلاف

والخصام بوصفه نصّاً شروداً قائماً في الوهم ينفعل به القارئ من غير روية" [16]، فها هو يعود إلى التراث مرّة أخرى، فإذا به يستحضر نصاً لأبي نواس يقول فيه[17]:

غَيْرَ أَنَّي قَائِلٌ مَا أَتَانِي ****مِنْ ظُنُونِي مُكَذِّبٌ لِلْعَيَـــانِ

آخِذٌ نَفْسِي بِتَأْلِيفِ شَيءٍ ****وَاحِدٍ فيَ اللّفْظِ شَتَى المَعَانِـي

قَائِمٌ فِي الوَهْمِ حَتّى إِذَا مَا**** رُمْتُه رُمتُ مَعَمَّى المَكَـــانِ

وَكَأَنِي تَابِعٌ حُسْنَ شَيءٍ **** مِنْ أَمَامِيْ لَيْسَ بِالمُسْتَبَـــانِ

وبالتالي فالنّصوصية حسب زعم الغذامي، إذا كانت ضد الاستقرار على معنى واحد، وضد السكون والجمود، فهذا شيء محمود ويُحسب لها، وكذا استدراج القارئ إلى نحو استثارة الذهن للإبداع والتجديد. وتحريك ملكة تعامله مع النّصوص وتذوقها، وبالتالي فهي حركة نشاط دائم، وهذا ما يرمي إليه الأدب والفن عموماً.

ومن ثمّ فقد راهن النقّاد على السياق كونه الآلية الوحيدة للتتبّع النصوص وفك شيفراتها الدلالية، مهما كانت موغلة في العتمة والإبهام والتعقيد، ولاسيّما هذه الخواص تعتبر من خواص الخطاب الأدبي عموما، فبقدر ما تكون العتمة والتشويش صفة لازمة للأدب وخاصية من خواصه، فهي خاصية جمالية وفنية تزيد النص انفتاحاً، وتفتح آفاقه للتأويل" لذلك نراهن على السياق بكل مستوياته وشروطه الدلالية والتداولية في فهمنا للشعر، سواء أكان السياق نصّاً(داخلياً) أو خارج نصّي (خارجياً)"[18] ، إذ لم تعد المسألة مسألة انغلاق وانفتاح على ما يبدو، بل معرفة ظروف وملابسات إنتاج هذا النص والسياق الذي أنتجه، وعليه فالقارئ مطالب بالبحث عن القرائن المعينة على كشف ذلك.

وبذلك يظهر أن السياقَ عنصرٌ مركزّيٌ وأداة إجرائية أساسية ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار" فالخطاب القابل للفهم والتأويل وبناء المعنى هو الخطاب القابل بأن يوضع في

سياقه، إذ كثيراً ما قد يكون المتلقي أمام خطاب بسيط من حيثُ لغته، ولكنّه يتضمّن قرائن تجعله غير مفهوم إذا لم يحظ بسياقه"[19] .

لقد توجّه البنيويون إلى النصّ بوصفه مركزاً للعملية الإبداعية، وبوصفه بنية، وليس حدثاً، وجعلوه منغلقاً على نفسه، فهو يُفسّر نفسه بنفسه[20]، وبالتالي وقعوا في تناقض صارخ، لمّا حاولوا قراءة النص قراءة داخلية (مغلقة) نابعة من النص ذاته؛ لأنّهم أهملوا مكوّناً داخلياً من مكوّنات النص البنائية، وهو (الانفتاح) لذا يجب الاعتراف بذلك، ويجب قراءة النص الأدبي في ظل هذا التعد؛ فالنّص موجّه إلى ذات أخرى مستقبلة، تتفاعل معه، تتلقاه في سياقات ربّما تكون مختلفة [21].

ثمّ ظهرت نظرية القراءة، باحثة عن زوايا أكثر اتّساعا وشمولاً، بغية الوصول إلى المعنى، وكانت تعتمد على القارئ وتخضع لتجربته بشكلٍ أساسي في ذلك، حيث انتقلت السلطة من المؤلّف إليه" إذ أنّ القراءة أنواع عديدة ، وليس الهدف هو الوصول إلى القراءة السّطحية فقط للنص، ولا استخراج المعنى الذي وضعه المؤلّف، بل يجب أن يكون هناك اشتراك بين الكاتب و القارئ في اللغة لكي نحصل على العديد من القراءات والتأويلات المختلفة للنص الأدبي"[22] فممارسة القراءة في الفكر الحداثي تشترط أن يكون النص ذو أبعاد مختلفة غني بالدلالات، لا نصّا جافا سطحياً، وعليه تصبح القراءة عملية إبداعية .

إذن من هنا تصبح عملية القراءة ذات أبعاد استراتيجية، فكلّما امتلك القارئ أليات القراءة وزمامها، وكان ذا أفق أوسع وثقافة متنوّعة، تقّلص ذلك الحاجز أمامه المتمثّل في إحساسه بانغلاق النص وتمنّعه، فينكشف للقارئ المعاني المحتملة التي كانت تبدو صعبة أو مستحيلة الإمساك بها، وعليه فضبابية المعنى في النصوص متعلّقة بالقارئ بالدرجة الأولى

أكثر ممّا هي متعلّقة بالنص، فكثيراً ما يتحجّج بعض القرّاء بتعقيد النص بسبب محدودية الاطّلاع وضيق الأفق، فيرمون النصوص بالانغلاق والعتمة والتشويش والتعمّد في ذلك.

4. فاعلية السّياق الثقافي والاجتماعي في إنتاج النصوص وتوجيه الدلالة:

لقد أشرنا آنفا إلى أن مفهوم النص في الدراسات النقدية شهد تحوّلًا كبيراً ولم يعد مجرّد متتالية لغوية أنتجها المؤلّف ضمن عملية تواصلية ما، بل أصبح متعلّقا بالبُنَى الاجتماعية والثقافية التي أنتجته ضمن مؤثرات تاريخية وسياقية ما، كما أصبح القارئ جزءً لا يتجزّأ من هذا المفهوم بحيث يشارك في تأويل هذا النص وإعطائه مّدلولات أخرى مختلفة، إلى درجة أهمل فيها المؤلّف والظروف التاريخية التي ساعدت ومهّدت لإنتاج هذا النص الذي لم يولد من العدم، فإلى أي درجة يمكن للمؤثّرات الثقافية والاجتماعية إنتاج النصوص بمختلف أنواعها، بما فيها النص الأدبي والنقدي؟.

إنّ مسألة إنتاج النصوص وتلقيها لا طالما اثارت جدلاً واسعاً بين النقاد حديثاً، الأمر الذي جعلهم يُثرون الساحة النقدية بمؤلّفات عدّة في هذا الشأن، ولكن يحقّ لنا في هذا السياق أن نطرح الإشكالية التي مفادها: ما طبيعة العلاقة التي تربطُ العمل الإبداعي بالبُني الاجتماعية والثقافية للمجتمع أو السيّاق التاريخي العام الذي يؤثّر في محتوى النص وشكله؟.

لكن ينبغي الإشارة إلى أنّ العلاقة بين البنى النصّية والبُنى الاجتماعية التاريخية هي علاقة جدلية، تقوم على التأثير والتأثّر بين النص والسيّاق التاريخي العام، وليست علاقة انعكاسية ميكانيكية، وهي من العلاقات المعقّدة جداً، يتطلّب حلّها معرفة المستويات التي يتم فيها تأثير الظروف الاقتصادية والاجتماعية على استعمال الدليل اللغوي، الذي سيصبح دليلاً إيديولوجياً بعد الاستعمال يستدعي فهمه معرفة سياق الإيديولوجيا التي وظّفت هذا الدليل اللغوي(الكلمة)[23].

ويتجلى لنا هذا الاستعمال الإيديولوجي لما تُشحن كلمة ما في استعمالاتنا اليومية بدلالات لم يشهدها المعجم اللغوي بمؤثّرات ثقافية اجتماعية تاريخية، ومن جهة أخرى يظهر أيضا في استقلالية كل طبقة اجتماعية بمجموعة من الأدلة اللغوية غير موجودة عند طبقة أخرى، رغم أنهما يشتركان في المعجم اللغوي إجمالاً، وهذا دليل على أن الفوارق الاجتماعية تلعب دورا كبيرا في هندسة طائفة غير يسيرة من الأدلة اللغوية التي نستعملها يومياً " فالكلمة تمتصّ كلّ التراكمات المُهيّئة للتغيّر الإيديولوجي الّذي سيحدث، والذي لم يأخذ وقته بعد لينضج ويصبح تياراً إيديولوجيا مكتملاً، وللكلمة القدرة على تسجيل المراحل الانتقالية الصغيرة للتغيرات الاجتماعية التي سرعان ما تزول"[24] .

تؤثّر البنية السوسيوثقافية– تاريخية على النصوص الإيديولوجية على مستويين: أولاً مستوى المحتوى أو المضمون، ثانيا على الشكل الخطابي الذي يجسّد هذا المحتوى، فعلى مستوى الشكل، يظهر التأثير في كون كلّ حقبة زمنية، وكل جماعة بشرية لها سجلها اللغوي الخاص، وأشكال خطابية تستعملها أثناء التواصل السوسيو إيديولوجي مع أفراد نفس الفئة[25].

وتصبح تأثيرات البنى الاجتماعية الثقافية أكثر سلطوية ووضوحاً على البنى النصية وصياغة أشكالها، حيث لا يفهم النص أو العمل الأدبي عموماً إلّا بفهم طبيعة هذا التفاعل الذي يحدث بين هذين البنيتين، ومن خلاله نفهم سيادة وسر تفوق بعض الأعمال الأدبية، وأفول أخرى واختفائها من الساحة الأدبية، وهذا راجع إلى الصراع الطبقي الذي تعرفه المجتمعات، وقد أشار إلى ذلك باختين.

وتبرز تأثيرات البنية الاجتماعية والسياسية على أشكال التلفظ جليًّا من خلال استعمالاتنا اليومية للغة " من خلال التأثير الكبير الذي تمارسه تراتبية العلاقات الاجتماعية على هذه الأشكال، فيّحدّد شكل الخطاب بطبيعة العلاقات الاجتماعية الموجودة بين

الأطراف المشاركة في العملية التواصلية، فالعلاقة بين مدير المؤسّسة وبين موظّفيه تستدعي شكلاً خطابياً يختلف عن الشكل الخطابي الذي تتطلّبه العلاقة بين موظّف وأخر، وهذا بحكم تراتبية العلاقة بين المدير والموظّف الذي يعمل عنده، كذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين الأب وابنه، كما تمارس الأعراف الاجتماعية المتعلّقة بالتواصل كعبارات اللّباقة وبعض الحركات– التي لها دلالة يعرفها من ينتمي إلى ذلك المجتمع فقط، تأثيراً كبيراً على الخطاب"[26].

وعلى مستوى آخر في أدبنا العربي فقد ظهرت الرواية على الساحة الأدبية فارضة نفسها كلون أدبي جديد، وفي فترة زمنية وجيزة مقابل تراجع الشعر العمودي، استجابة لظروف ومؤثّرات اجتماعية وسياسية خاصّة ملحّة أدّت إلى صياغة هذا اللون الأدبي، فقد أفرزها التطور الحاصل في المجتمع العربي بعد سيطرة القوى الاستعمارية والأنظمة الموالية لها من الداخل، فلم يجد الوعي العربي جنسا أدبياً أوسع وأرحب ليستجيب لتطلّعاته ويعبر عن آماله وآلامه أكثر من الرواية.

ولاشك أن الارتباط الحاصل بين الأفق الاجتماعي والأفق النصّي" هو ما يعطي النص على مستوى المحتوى ذلك البُعد القيمي، أي يصبح محمّلاً بمجموعة من القيم، يستدعي اكتشافها العودة إلى ذلك الواقع الذي حمّله هذه القيم، لأنّ الأحكام القَيْميّة لا تُطلق على النص المعزول عن الأفق الذي ينبثق منه، فبعزله يصبح هذا النص مجرّد كيان لغوي جاف خالٍ من كل القيم والمواقف"[27].

وعلى مستوى التحليل والقراءة فالنقّاد يتخذون من النصوص المحمّلة بقيم اجتماعية وثقافية وتاريخية، فينكبّون على دراستها وتحليليها واستخراج ما فيها من قيم جمالية وفنية لأنّها تشكّل مادّة دسمة لهم، ولا يضيّعون جهودهم في قراءة نصوص لا تحمل أي قيّم ولم تنتج في سياقات معيّنة، فهذه نصوص جافة لا تحتمل أي قِراءات وتأويلات.

5. النص الأدبي من القراءة الثقافية إلى النقد الثقافي:

لقد تبيّن لنا أنّه لا يمكن إنتاج نص مهما كان نوعه (أدبي، فلسفي، نقدي، تاريخي...) وتلقّيه وقراءته خارج المنظومة الثقافية المتفاعلة مع الواقع الإنساني، والتي تتجلى في أشكال تعبيرية مختلفة، حتى غدا النص الأدبي يقرأ قراءة ثقافية اجتماعية، للوصول إلى بنيته العميقة وما تنطوي عليه من أشكال ترميزيّة، وبالتالي حتمية التحول من القراءة الثقافية إلى النقد الثقافي لابدّ منها حتى تُخلّص النصوص من شوائب التأويلات التعسفية التي تخرج النصوص عن إطارها.

ولذلك كلّه يأتي النقد الثقافي كفرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية)، معنيٌ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكلّ تجلياته وأنماطه وصيغه...غير معني بكشف الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي، وإنّما مهمّته كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي[28] .

وتأسيساً على ما سبق يسعى التحليل الثقافي للنصوص الأدبية إلى إعادة قراءة تلك النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التاريخية والثقافية، ذلك أنّ هذه الأخيرة تتضمّن في بناها أنساقاً مضمرة ومخاتلة قادرة على المراوغة والتمنّع، لا يمكن للقارئ كشفها أو كشف دلالاتها في المنجز الأدبي إلّا من خلال إنجاز تصورٍ كلّيٍّ حول طبيعة البُنى الثقافية للمجتمع، وإدراك حقيقة هيمنة تلك الأنساق المؤسّسة على فكرة الإيديولوجيات ومفهوم المحتمل في صراع القوى الاجتماعية المختلفة[29].

وفضلا عن ذلك فالتحليل الثقافي يهدف إلى مساءلة التراث والتاريخ وأعراف المؤسسات الثقافية مساءلة واعية عن طريق الفعل القرائي الذي يُؤدّيه الناقد المختلف الذي لا يعترف ببراءة شعاراتها وخطاباتها[30] . فنحن نقرأ العديد من النصوص الأدبية لمختلف العصور، بداية من الجاهلي إلى الأموي والعباسي وصولاً إلى العصر الحديث والمعاصر،

ولكلّ نصّ منها، وفي أيّ عصرٍ له ظروفه وملابساته التي أنتجته، ولا يخلو أي منها من أنساق مضمرة، والأبعد من ذلك أنّنا نقف مدهوشين أمام مواطن الجمالي الفنّي فيها، ونتقبّل كلّ ذلك دون مساءلة نقدية لها على مستوى الأنساق المضمرة، ونقد الثقافية والاجتماعية منها، وهذه وظيفة النقد الثقافي التي من أجلها أنشئ وغايته التي بفضلها وُجد.

وتتشكّل وظيفة النقد الثقافي في كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي، وليست في نقد الثقافة مطلقاً، أو مجرّد دراستها ورصد تجلياتها، بمعنى أنّ لحظة هذا الفعل هي في عملية الاستهلاك أي الاستقبال الجماهيري لخطاب ما وتلقّيه، ممّا يجعله مستهلكاً عموماً، وفي حين أنّه لا يتناسق مع ما نتصوره عن أنفسنا وعن وظيفتنا في الوجود ذلك حينما يكون الجمالي مخالفاً للعقلي، والمقبول البلاغي يناقض المعقول الفكري[31] .

وانطلاقاً من ذلك " يأتي مفهوم النسق المضمر في النقد الثقافي بوصفه مفهوماً مركزياً والمقصود هنا أنّ الثقافة تملك أنساقها الخاصّة التي هي أنساق مهيمنة، وتتوسّل لهذه الهيمنة عبر التخفي وراء أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها هو في دعوانا قناع الجمالية"[32]. أي أنّ بعض النصوص قد تتضمّن بعض الأنساق المضمرة الجمالية الفنية في ظاهرها، والإيديولوجية في باطنها، يبتغي مؤلّفوها من خلالها فرض وبسط بعض الأفكار والقيم والمعتقدات، ولا يُتنبّأ لها، ذلك أن التستّر وراء هذه الأقنعة الجمالية التي تُعدّ درعاً سميكاً أمّام الناقد المبتدئ، بحيثُ لا يُتفطّن لها، ما لم يمتلك أليات القراءة الناقدة والمتفحّصة، وعليه ينبغي دوماً أن يتساءل الناقد أن الخطاب البلاغي يُضمر بداخله غير الجمالي الفنّي لابدّ من الكشف عنه، وهي وظيفة النقد الثقافي عدم القبول المطلق بأدبية النص وجمالياته .

ومن هنا يتجلى دور النقد الثقافي في إحداث تلك النقلة النوعية للقراءة" من قراءة النص بوصفه نصّاً يرتكز اهتمام القارئ فيه حول المعاني الأدبية والجمالية فحسب، وإنّما

بوصفه خطاباً ثقافيا يشتمل على الأدبي والجمالي والتاريخي والاجتماعي ...كمكوّنات للثقافة ...وكذا العلاقة بين البنية النسقية للثقافة وبنية النص الأدبية اللغوية، فالوعي بالثقافة يُساعد القارئ على تجاوز حدود ما يقرأ، ويجعله في حالة جدل دائم مع ما هو ثابت ومستقرّ في الفكر والثقافة، وما هو متغيّر متحرّك داخل النصوص الأدبية " [33].

بناءً عليه فقد فرض النقد الثقافي نفسه كآلية وأداة من أدوات قراءة النصوص وتحليلها التي تنطوي على بُنى وشبكات اجتماعية وثقافية معقّدة، وجعلها قابلة للقراءة والتأويل مهما انفتحت وأتسع أفق القراءة لديها، وذلك بطبيعة الحال يتطلّب وعياً من القارئ بالمنجز الثقافي والرصيد التاريخي لذلك المجتمع، ويزداد الأمر تعقيداً إذا علمنا أنّ هذا الأخير ديناميكي متحرّك هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ النص متمنّع حصين ليس من السهل الولوج إلى عوالمه الخفية، وهو دائما ما يحفل بفجوات وفراغات وإشكاليات فكرية ينبغي على القارئ الناقد

أن يحلّها ويُفكّكها، على النحو الذي يولّد لنا معرفة جديدة وغير تقليدية، على عكس المنظور الجمالي الذي هو ثابت ويخضع لضوابط وممارسات، وهذا ما دأب النقد الثقافي عليه.

غير أنّه يجب الحذر من المبالغة في إحالة النص كلّية إلى القارئ ورميه في أحضانه يكيّفه كيفما شاء دون ضوابط، فالقارئ قد يُخضِع النص لأذواقه، وبالتالي فهو حصرٌ للنصّ وتقييد له ضمن معرفته الخاصّة واهتماماته الشخصية الضيّقة، وعليه فيُمتصّ من كل مكوّناته ويُفرغ من محتوياته.

6. خـــــاتمة:

توصّلنا في نهاية هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-إنّ النصّ وحدة دلالية تواصلية عابرة للأجيال والثقافات، قبل أن يكون وحدة لسانية في عملية التحليل، وليست الجمل إلّا وسيلة يتحقق بها.

-إنّ النّص يمتلك عدة بنيات ولا ينحصر فقط في البنية اللسانية (مستوى نحوي، صوتي صرفي..معجم، دلالة)، ويمتلك أيضا بُنىً فوقية، أسلوبية وبلاغية، ولا يحلّ إلّا في ضوء هذه البنيات مجتمعة مترابطة.

-كل نص أدبي مهما كان مستواه لابدّ أن ينطوي على مؤشّرات وسياقات ثقافية واجتماعية هي التي أوجدته، وليس بنية منغلقة على نفسها مثلما يراه الشكلانيون الروس.

-لعلّ خاصية الإيهام والتعقيد ونبذ أحادية المعنى في النصوص الأدبية، لها مرجعيّتها التاريخية في أدبنا العربي، وهذا ما لاحظناه من استنتاجات الغُذامي من أشعار أبي نواس.

- لعب النقد الثقافي دورا مهمّا في توجيه النصوص المنفتحة ذات الحمولة الثقافية لأنّها نصوص متحرّكة غير ثابتة، ولا تخضع لضوابط وممارسات محددة مثل النصوص ذات الأبعاد الجمالية.

7. قائمة الهوامش:

1- جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، ص272، ج14، مادة نصص.

[2]- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث، لبنان، مؤسّسة الرسالة، ط8، 2005، ص632-633، مادة: نصص.

[3]- الشريف الجرجاني، التعريفات، تح: محمّد صديق المنشاوي، القاهرة ، دار الفضيلة، دط، دت، ص202.

4- فقاص حفصة، دور السياق الثقافي في التواصل النصّي، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر 2، ع21، 2014، ص25.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص26.

[6]- نفسه، الصفحة نفسها.

[7]- قارة مصطفى نور الدين، النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، رسالة دكتوراه، النقد المعاصر، إشراف: أحمد يوسف، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، 2010/2009. ص194.

[8]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمد محمود شاكر، دط، دت، ص286.

[9]– ينظر: عالي سرحان القرشي، تحولات النقد وحركية النص، لبنان، مؤسسّة الانتشار العربي، ط1، 2009، ص27.

[10]– عبد الله الغذامي، المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص47.

[11]– عالي سرحان القرشي، تحولات النقد وحركية النّص، ص27.

[12]– المرجع نفسه، ص30.

[13]– محمد مفتاح، المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2010، ص19.

[14]– يُنظر: المرجع السابق، ص92، 93.

[15]– عبد الله الغذامي، المشاكلة والاختلاف، ص102.

[16]– المرجع نفسه، ص104.

[17]– ديوان أبي نواس، تح: بهجت عبد الغفور الحديثي، أبو ظبي، دار الكتب الوطنية، ط1، 2010، ص148.

[18]– علي آيت أوشان، السيّاق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2000، ص136.

[19]– يُنظر: محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006، ص56.

[20]– عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009، ص17.

[21]– قارة مصطفى نور الدين، النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، ص194.

[22]– سماح ساعي وغنيمي الوردي، نظرية التلقي بين النشأة والتأسيس مقاربة في فكر حسين الواد، مجلة النّص، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر، مج12، ع2، 2025، ص174–175.

[23]– شرفاوي سهيلة، فاعلية السياق السوسيوثقافي في إنتاج النص عند ميخائيل باختين، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر2 ، ع21، 2014، ص13.

[24]– المرجع نفسه، ص13–14.

[25]– ينظر: نفسه، ص15.

[26]– نفسه، ص25.

[27]– نفسه، ص16.

[28]– يُنظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001، ص84.

[29]– يوسف عليمات، النسق الثقافي قراءة في أنساق الشعر العربي القديم، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009، ص11.

[30]– المرجع نفسه، ص14.

[31]– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص81–82.

[32]– عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيّف، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، دمشق، دار الفكر، ط1، 2004، ص30.

[33]– عبد الفتّاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، ص04.

8. قائمة المصادر والمراجع:

الكتب :

1. جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، ص272، ج14.
2. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث، لبنان، مؤسّسة الرسالة، ط8، 2005.
3. الشريف الجرجاني، التعريفات، تح: محمّد صديق المنشاوي، القاهرة ، دار الفضيلة، دط، دت.
4. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمد محمود شاكر، دط، دت.
5. عالي سرحان القرشي، تحولات النقد وحركية النص، لبنان، مؤسسّة الانتشار العربي، ط1، 2009.
6. عبد الله الغذامي، المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994.
7. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2001.
8. عبد الله الغذامي، عبد النبي اصطيّف، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، دمشق، دار الفكر، ط1، 2004.
9. محمد مفتاح، المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2010.
10. ديوان أبي نواس، تح: بهجت عبد الغفور الحديثي، أبو ظبي، دار الكتب الوطنية، ط1، 2010.
11. علي آيت أوشان، السيّاق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2000.
12. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006

13. عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009.
14. يوسف عليمات، النسق الثقافي قراءة في أنساق الشعر العربي القديم، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009.

الدوريات:

15. فقاص حفصة، دور السياق الثقافي في التواصل النصّي، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر 2، ع21، 2014.
16. سماح ساعي وغنيمي الوردي، نظرية التلقي بين النشأة والتأسيس مقاربة في فكر حسين الواد، مجلة النّص، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر، مج12، ع2، 2025.
17. شرفاوي سهيلة، فاعلية السياق السوسيوثقافي في إنتاج النص عند ميخائيل باختين، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر2، ع21، 2014.

الرسائل الجامعية:

18. قارة مصطفى نور الدين، النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، رسالة دكتوراه، النقد المعاصر، إشراف: أحمد يوسف، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، 2010/2009.